شعر كعب بن زهير – قراءة نقدية

أ.د. عقيل جاسم دهش

مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة

مدخل: أطراف من حياته وشعره:

هو كعب بن زهير بن ربيعة بن رياح المزني، من قبيلة مضر، كان جده ربيعة يعيش في كنف أخواله بني غطفان من بني مرة الذبيانيين، وولد له زهيرٌ في ديارهم، لذا اضطرب الرواة في نسبته، فنسبه بعضهم الى غطفان، وصرح بذلك محمد بن سلام الجمحي وتابعه ابن قتيبة الدِّينَوري وأبو حاتم السجستاني.

ويمثّلُ الشاعر كعب بن زهير مرحلة مهمة من مراحل القصيدة العربية، إذ إنّه عاش أيام التحوّل من الجاهلية إلى الإسلام، وما رافقها من تغيّر في القيم الاجتماعية والدينية.

وقد وصفه العلماء بالفحولة والجودة والتقدم، فجعله محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) في الطبقة الثانية، في كتابه (طبقات فحول الشعراء) مع أوس بن حجر والحطيئة وبشر بن أبي خازم[١]. وكذلك عدَّهُ عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوري (٢٧٦هـ) في (الشعر والشعراء) من الفحول المجودين في قوله ((وكان كعب فحلا مجيدا))، وتابعه أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني القرشي (٣٥٦هـ) في كتابه (الأغاني) في قوله ((وهو من المخضرمين ومن فحول الشعراء))، وكذلك فعل أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (٣٨٤هـ) في (معجم الشعراء) فاختصَّه بالفحولة والسبق والتجويد، وهو قوله ((كان شاعرا فحلا مجودا ومقدما في طبقته)). غير أن أبا سعيد الأصمعي (٢١٦هـ) في كتابه (فحولة الشعراء) الذي صنعه أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (٢٤٨هـ) أخرجه من حلبة الفحول من دون مسوغ ما عدا الذوقيةَ والأحكامَ الفرديةَ والانطباعاتِ الجزئيةَ، ولعلهُ يكون قد استهجن كثرة المقطوعات في شعره.

ومهما يكن من أمر فالرجلُ يعدُّ من كبار الشعراء، وكان مقدما في الجاهلية والإسلام حتى قيل لخلف الأحمر: زهيرٌ أشعرُ أم ابنه كعب؟ فقال: لولا أبياتٌ لزهير أكبرها الناس لقلتُ: إنَّ كعباً أشعرُ منه، يريد قوله في هرم بن سنان[٢]:

لمنِ الديارُ بقنّةِ الحِجْرِ أقوينَ من حِججٍ ومن دهرِ
ولنعمَ حشوُ الدرع أنتَ إذا دُعِيَتْ نزالِ ولُجَّ في الذعرِ
فلأنتَ تفري ما خلقتَ وبعـ ضُ القوم يخلقٌ ثم لا يفري
والسترُ دون الفاحشات وما يلقاكَ دون الخير من سِترِ
كنتَ المنّورَ ليلةَ البدر لو كنتَ من شيء سوى بشرِ

وكان زهير راوية لأوس بن حجر التميمي، وكان كعب رواية لأبيه زهير، وكذلك الحطئية جَرول بن أوس، إذ كان زهيرٌ أستاذه.

وكان الحطيئة متين الشعر محكم القوافي متصرفا في جميع فنون الشعر، وكان معجبا بأستاذه زهير غاية الإعجاب لتمكنه من قوافيه وتنوع معانيه، وقد سئل عنه، فقال: ((ما رأيت مثله في تكفيه على أكناف القوافي وأخذه بأعنتها حيث شاء من اختلاف معانيها امتداحاً وذماً)) [٣]، وقال يوماً لكعب بن زهير: ((قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً، فإن الناس لأشعاركم أروى واليها أسرع))، فقال كعب[٤]:

فمن للقوافي؟ شأنها من يحوكها إذا ما ثوى كعبٌ وفَّوّز جَرولُ
يقولُ فلا يعيا بشيء يقوله ومن قائلِيها منْ يُسيء ويعملُ
يقوّمُها حتىَ تقومَ متونُها فيقصرُ عنها كلُّ ما يُتمثّلُ
كفيتك لا تلقى من الناس شاعرا تنخّلَ منها مثل ما أتنخّلُ

وكان إسلام كعب في السنة التاسعة من الهجرة بعد رجوع النبي (ص) من الطائف وغزوة تبوك، وتشير الروايات الى أن كعبا كان قد أرسل الى أخيه بجير أبياتاً ينهاه عن الإسلام، وذكر بجير ذلك للنبي (ص) فتوعده، فأرسل بجير إليه: ويلك! إنَّ النبي أوعدك، وقد أوعد رجالاً بمكة فقتلهم، وهو واللهَ قاتلك أو تأتيه فتسلم، فلما وصله الخبر، قدِمَ كعبٌ متنكراً، وتوجه نحو رسول الله معلنا إسلامه، فبسط النبي يده، فحسر كعب عن وجهه، وقال: "هذا مقام العائذ بك يا رسول الله، أنا كعب بن زهير"، فتجهَّمتهُ الانصار وغلَّظت

له، لنيله قبل ذلك من رسول الله (ص)، وأحبّ المهاجرون أن يسلم ويؤمنه النبي، فأنشد بين يدي رسول الله قصيدته المشهورة ((بانت سعاد)) ° التي استهلها بقوله:

بانتْ سعادُ فقلبِي اليومَ متبولُ متيمٌ إثرها لم يُجزَ مكبولُ
وما سعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا إلا أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ
تجلو عوارضَ ذي ظلمٍ إذا ابتسمتْ كأنه مُنهلٌ بالراحِ معلولُ
فما تدومُ على حالٍ تكونُ بها كما تلونُ في أثوابها الغُولُ
كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلاً وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

ثم أتبع قوله معتذراً من رسول الله (ص):

أنبئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدنِي والعفوُ عندَ رسولِ اللهِ مأمولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ القرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تأخذني بأقوال الوشاة، ولم أُذنبْ ولو كثرت عني الأقاويلُ

ثم استرسل في مدح النبي وأصحابه من المهاجرين:

إنَّ الرسولَ لسيفٌ يستضاءُ به مهندٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ
في عصبةٍ من قريشٍ قالَ قائلهمْ ببطنِ مكةَ لمَّا أسلمُوا زولُوا
زالوا فما زالَ أنكاسٌ ولا كشفٌ عندَ اللقاءِ ولا مِيلٌ معازيلُ
شُمُّ العرانينِ أبطالٌ لبوسُهمُ من نسجِ داوودَ في الهَيجا سرابيلُ
يمشون مشيَ الجمال الزهرِ يعصمُهم ضربٌ إذا عرَّد السودُ التنابيلُ
لا يقعُ الطعنُ إلا في نحورهمُ ما إنْ لهم عن حياض الموت تهليلُ

فلما انتهى من قصيدته كساه النبيُّ (ص) بردته، فسميت قصيدته بالبردة، فطار صيتها وعمّت شهرتها في الآفاق، وتناولها العلماء بالشرح والتخميس والتشطير والمعارضة، وقد شرحها كثيرون منهم أبو بكر محمد

بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١هـ) وأبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي (٥٠٢هـ) وأبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام (٧٦١هـ)، وطبعت طبعاتٍ عديدة.

وإذا أردنا أن نتحدث عن كعب بن زهير فإننا نتحدث عن مدرسة شعرية أرسى دعائمها ووضع لها سماتها الفنية الشاعر أوس بن حجر التميمي ثم تابعها ونماها ونضجها أسلوبا ومنهجا وتقاليدَ فنيةً الشاعرُ الكبير زهير بن أبي سلمى ليأخذ بعد ذلك بأطرافها ويمنحانها هويتها وبصمتها وبريقها راويتاه كعب والحطيئة.

نحن إذن بأزاء مدرسة شعرية تميزت بسمات فنية عديدة، وكان لها طابعها المميز في نظم الشعر، أسماها طه حسين (مدرسة أوس في الوصف والتصوير)، وهي مدرسة التنقيح والتجويد في الشعر أو ما يمكن أن نصطلح عليه ،،مدرسة صناعة الشعر،، في قبال ،،مدرسة قول الشعر،، وهي مدرسة الشعراء المطبوعين.

قال الأصمعي "زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين"[٦]، ونقل عن الحطيئة قوله "خيرُ الشعر الحوليُّ المحكك"، وكان الجاحظ يقول "وكان زهير يسمي كبار قصائده الحوليات"[٧]، ولقد عدَّ العلماءُ-كما ينقل ابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ) في كتابه (العمدة)- من فضل صنعة الحطيئة حسنَ نسقه الكلام بعضه على بعض[٨]، كما ذكر عبد القادر البغدادي في (خزانة الأدب) أن زهيرا كان ينظم القصيدة في شهر وينقِّحُها ويهذِّبُها في سنة وكانت تسمى قصائده الحوليات.

وأبرز سمات مدرسة صناعة الشعر:

- اختيار الألفاظ والابتعاد عن الغريب أو الوحشي أو المتوعر
- الوضوح في الصياغة والابتعاد عن التعقيد أو الغموض أو التداخل اللفظي
- التروي والتهذيب والصقل والتجويد
- الواقعية في التعبير عن الموضوع وعدم الجنوح الى الخيال المفرط أو الغلو
- التنقيب والغوص لالتقاط المعاني الدقيقة
- الإكثار من الحكم والأمثال السائرة
- الوقار والتعفف والابتعاد عن الفحش والإسفاف والدعوة الى مكارم الأخلاق

- التفنن في وصف الفرس والناقة والظعن والثور وحمار الوحش وسرد التفاصيل وتصوير أدق الجزئيات والتفتيش عن المعاني الطريفة والمبتكرة للتعبير عنها في صور مفعمة بالحركة نابضة بالحياة.

ولقد بين ابن سلام في حديثه عن زهير بأيِّ شيء تقدم زهيرٌ على غيره من شعراء العصر الجاهلي، وذلك قوله "من قدم زهيرا احتج بأنه كان أحسنهم شعرا وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ وأشدَّهم مبالغةً في المدح وأكثرهم أمثالا في شعره"[٩].

وذكر ابن قتيبة بعضا من ملامح هذه المدرسة الشعرية في حديثه عن أوس، وهو قوله "وكان أوس عاقلا في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق وهو من أوصفهم للحمر والسلاح، وسبق الى دقيق المعاني والى أمثال كثيرة"[١٠].

ويعلن كعب عن ذلك صراحة في شعره، فهو ابن ذلك السيد الشريف المنيع والشاعر العالم الحكيم وأنه لم يزل يقفو أثره في الشعر ونظم القصيد، وإذ هو يفخر بقومه وانتسابهم الى معد بن عدنان، وبأبيه زهير وما حضي به في قومه من جاه وشرف وسيادة وما شاع عنه من عفة ودراية وحكمة وبصيرة وما سابق به غيره من رجاحة العقل وحسن التدبير وقوة المنطق والحجة، يصرّحُ بما لا يقبل الشك أو التأويل أن شعره امتدادٌ لشعر أبيه وعلى طريقته ونهجه، ويبرِزُ أثر هذه المدرسة في شعره إذ جعلت قصائده أشبه بقصائد أستاذه زهير من حيث التجويد والتهذيب ودقة الصياغة وإحكام النسج أو النسق وجزالة العبارة ومتانتها وأنه لم يزل يحاكيه في أسلوبه ونظمه، وهو أعلمُ بشعره من غيره، يقول[١١]:

فإنْ تسأل الأقوامَ عني فإنني ... أنا ابنُ أبي سلمى على رغم من رغِمْ
أنا ابن البذي قد عاش تسعين حجَّة ... فلم يَخْزَ يوما في معدٍّ ولم يُلمْ
أتى العجمَ والآفاق منه قصائدٌ ... بقِينَ بقاء الوحيِ في الحجَرِ الأصمْ
فأُعطِيَ حتى مات مالا وهمَّة ... وورَّثني إذ ودَّعَ المجد والكرمْ
وكان يُحامي حين تنزلُ لزْبةٌ ... من الدهر في ذبيانَ إنْ حوضُها انهدمْ
أقولُ شبيهاتٍ بما قال عالما ... بهنَّ ومن يُشْبهْ أباهُ فما ظلمْ

وعند تشريح شخصيته المثيرة للجدل نجدها قد تنازعها حبلان، حبل الجاهلية وحبل الإسلام، فالحبل الجاهلي كانت له أيقونته الخاصة، وهي ،،انحراف البوصلة،، أو ،،ضياع الهدف،، وقد طبعت شخصيته بسمات التذمر والتمرد والتشاؤم، أما الحبل الإسلامي فكانت له أيقونة مغايرة أو مضادة تماما، وهي ،،الرضا والاستدراك،، التي طبعت شخصيته بسمات السكينة والقناعة والصلاح، وقد لعب عاملان، وهما الفطرة السليمة ونقاء السريرة في حسم نتيجة هذا الصراع في إطار البحث عن الذات لصالح الطور الآخر من حياته، وهو "الشخصية المسلمة"...

نعم كان لكعب نفسان يتنازعهما جسدٌ واحد ولكن في طورين مختلفين وموقفين من الحياة متباينين، نفسٌ جاهليةٌ قوامها الغلظة والاضطراب والتذمر والشعور المتنامي باليأس والسخط على الدهر، وأخرى إسلامية قوامها صفاء الروح والسكينة ورقة الطبع وتعزيز التفاؤل والأمل.

وإنَّ ثمة مُحدداتٍ ثلاثا كان لها أثر كبير في بلورة فلسفته أو رؤيته في الحياة وتأطير مواقفه وسلوكياته، وهي:

- أنفتهُ وكبرياؤهُ وحدَّةُ طبعه.
- حسبه وشرف قومه.
- أثر زهير في شخصيته بما شاع عنه من كرم وضيافة وكياسة.

لقد كان كعب يحيا حياة فقر وحرمان واضطراب قوامها التذمر والتشكي واليأس، وكان كما يقول ابن قتيبة ((محارفا لا ينمى له مال))، والمحارفُ هو المحروم الذي ضاقت به السبل أينما توجَّه لم يُصبْ خيرا.

وإذن لقد عاش كعب محارفا ضريكا متبرما من يومه حانقا على دهره ساخطا على قدره غير مكترث بأجله، لم يزل يفلت من المنون إذ تمرُّ به ولا تصرعه، وما أشبههُ بصياد حاذق طاش سهمه ففرَّ الصيدُ تاركا وراءه الغبار الكثيف، استمع اليه وهو يقول[١٢]:

فأرسلَ سهما على فُقرةٍ وهُنَّ شوارعُ ما يتقينا

فمرَّ على نحره والذراع ولم يكُ ذاكَ له الفعلُ دينا

فلَهَّفَ من حسرةٍ أمّهُ وولَّينَ من رهج يكتسينا

ويدور في فلك هذا المعنى في غير موضع أو مناسبة فلربما يعصمُ الإنسان من حتفه عاصمٌ وكأن الموت يحُلُّ بأرضه مختبرا من دون أن يُهلكه، والصياد الماهر الحريص المتمرس الذي خبُرَ الصيد واحترفه وعرف فنونه وطرقه وأساليبه إذا ما طاش سهمه وأخطأ هدفه ركبه الهمُّ واحتنقهُ الأسى وصار كأنه غارمٌ، أي مطالبٌ بدين ثقيل ألحَّ صاحبه بالطلب، يقول[١٣]:

أخو قُتُراتٍ لا يزالُ كأنهُ إذا لم يُصبْ صيدا من الوحش غارمُ

ومرَّ بأكناف اليدين نضِيَّهُ وللحتفِ أحيانا عن النفس عاجمُ

يعَضُّ بإبهام اليدينِ تندُّما ولهَّف سرا أمهُ وهو نادمُ

وطبيعيٌ جدا أن يتشكّى رجلٌ أتت عليه الدنيا فأسلبته وأفنت كل ما عنده غير حمية وكرم ألفتهما نفسه ورنت إليهما أنفته وحسب قومه، أليس يقول[١٤]:

كسوبٌ الى أن شبَّ من كسب واحد محالفُه الإقتارُ لا يتموَّلُ

إذا حضراني قلتُ لو تعلمانه أم تعلما أني من الزاد مرمِلُ

والتذمر وشؤم الطالع عاملان كان لهما أثر كبير في شخصيته وطباعه، وهذا الطالع النحس لا شك أقام عنده ولأجله، ولم يقنع بذلك فأخذ يرافقه في حله وسفره، وصار كأنه عضو من أعضاء جسد أو سجية من سجايا نفسه، فهو يصدُّ ويبدي عن هذا ويقول[١٥]:

لعمرُكَ لولا رحمة الله إنني لأمطو بجَدٍّ ما يريد ليرفعا

إذا ما نتجنا أربعا عام كُفأة بغاها خناسيرٌ فأهلك أربعا

إذا قلت إني في بلاد مَظلَّة أبى أنَّ مُمسانا ومُصبَحنا معا

ومن متبنياته الخطيرة في عهده الجاهلي التحريضُ على العصبية القبلية، والذي يؤجج هذا النفس القبلي لديه موجهاتٌ ثلاثٌ، هي شرف قومه واعتداده بنفسه وحدة طباعه، فمضى يحرض قومه ويحثهم على الثأر لكرامتهم واستعادة هيبتهم ولا بد من النصفة لأنفسهم منها بعد أن سلبهم غريمهم غرورهم وعزتهم وغنم منهم

فرسا أصيلا، ومن مثلهم في الشدة والبأس لا يخنعون لضيم ولا يبيتون على ذحل، ولا بأس بتذكيرهم واستثارة هممهم وعزائمهم بما ورثوه عن أسلافهم من السؤدد والسيادة والشرف العظيم، وأنه لم يكن يعهدهم لقمة سائغة لمن يشاء ابتلاعها، بل عهده بهم أنهم كرام يذودون عن تراثهم وأحسابهم ويسارعون لا ريب لنجدته وحفظ حقِّه وحرمته وذمامه، يقول[١٦]:

فما خِلتكُم يا قومِ كنتمْ أذلَّةً وما خِلتكمْ كنتمْ لمُختلسٍ جنى
لقد كنتمُ في السهل والحَزْنِ حيَّةً إذا لدغتْ لم تشفِ لدغتَها الرقى
فإنْ تغضبوا أو تدركوا لي بذمة لعمركمُ لَمِثلُ سعيِكمُ كفى
لقد نال زيدُ الخيل مال أخيكمُ وأصبح زيدٌ بعد فقر قد اغتنى

ومما يحسبُ له في ذلك الطور من حياته:

- دعوته لقومه الى الوحدة والتكاتف والوفاء بالعهود والمواثيق، ولم يكن شيءٌ عنده في الحياة أعظم وأجلَّ من الدعوة الى التكاتف والوفاء بالعهد والذود عن الأحساب والتسابق نحو المجد والمكارم:

فكونوا جميعا ما استطعتمْ فإنه سيلبسُكمْ ثوبٌ من الله واسعُ
وقوموا فآسوا قومكم فاجمعوهمُ وكونوا يدا تبني العلا وتدافعُ
فإنْ أنتمُ لم تفعلوا ما أمرتكُمْ فأوفوا بها إنَّ العهود ودائعُ[١٧]

- رسالته الإصلاحية وسعيه لتطييب النفوس والتقريب بين وجهات النظر، فكان بحق سفير النوايا الحسنة ورسول إصلاح ذات البين في قومه، يجبر الكسر ويرأب الصدع وينزل من قومه منزل لقمان في أهله، فحق له أن يفخر بهذا ويقول[١٨]:

رحلتُ الى قومي لأدعوَ جُلَّهمْ الى أمر حزمٍ أحكمتهُ الجوامعُ
سأدعوهمُ جُهدي الى البر والتقى وأمر العلا ما شايعتني الأصابعُ

وما أنْ دخل في ربقة الإسلام حتى سكنت لجتُه وبانت حجتُه وحلا مُجُّه وصفا رهَجُه، فإذا به شيءٌ آخرُ مختلفٌ ونفسٌ جديدةٌ عارفةٌ مطمئنةٌ واعظةٌ، تتفجر الحكم من بين جوانحها، ويجود بها شعرُه ولسانُه:

بينا الفتى معجبٌ بالعيش مغتبطٌ إذا الفتى للمنايا مُسْلمٌ غلقُ
كذلكَ المرءُ إنْ يُنسأ له أجلٌ يُركبْ به طبقٌ من بعده طبقُ[١٩]

وقد تمكن الإسلام من ترويض هذه النفس وإجلاء الأدران عنها فأخذت تنقى شيئا فشيئا حتى زكت وتوشحت أو كادت برداء الطهر والعفاف والزهادة، فاسمع قوله[٢٠]:

فلا تخافي علينا الفقرَ وانتظري فضلَ الذي بالغنى من عنده نثقُ

وقد وصفه شوقي ضيف بأنه يقرب من زهاد المسلمين الذين كانوا يرون أن مجرّد التفكير في الرزق لما هو قادم من الأيام هو خطيئة لا تغتفر[٢١]، وعدّهُ السيد محسن الأمين العاملي (١٣٧١هـ) من أعيان الشيعة ومحبّي آل البيت (ع)، وروى له شعرا عن إبراهيم بن محمد البيهقي (٣٢٠هـ) في (المحاسن والمساوئ) يمدح فيه الحسين بن علي (ع)، وهو قوله[٢٢]:

مسحَ النبيُّ جبينهُ فلهُ بياضٌ في الخدودْ
وبوجههِ ديباجةٌ كرمُ النبوةِ والجُدودْ

وإذن لقد كساه الإسلام حلَّة جديدة من الورع والزهادة والرضا والتوكل، وقد آلى أن يلبس على دينه ثوبا خلقا، وهي كناية عن حسن إسلامه، وما أروعها من كناية، تفصح عن سريرة رجل آنس الكفاف والتقشف والحياة البسيطة وآثر الغنم بالقناعة والتقوى والعمل الصالح ولجَّ نهما بافتراع الحكمة واجتنائها من مظانها ومستودعها، يقول[٢٣]:

فأقسمتُ بالرحمن لا شيءَ غيرهُ يمينَ امرئ برٍّ ولا أتحلَّلُ
لأستشعرنْ أعلى دريسَيَّ مسلما لوجه الذي يُحيي الأنامَ ويقتلُ

فأين ذاك التذمر والتشكي والجحود من هذا التزود من القناعة والتلبُّس بالزهد والرضا، وأين تلك النفس الجامحة النفور المفاخرة المتوعدة من هذه النفس الهادئة المطمئنة المسالمة المتأدبة بأدب القرآن والخلق الرسول (ص)؟.

وموقفه الجديد هذا ينمُّ عن حدْسِ مبيطر حكيم خبر الأمور وجرَّبها وشهد المواقف وراشها بعين ثاقبة بصيرة ولبٍّ نيِّر حصيف وفطنة وحذق ومهارة وصناع، وإذن فاسمع قولته وتنسَّم حكمته:

وليس لمنْ لم يركبِ الهولَ بُغيةٌ ... وليس لرحلٍ حطَّه اللهُ حاملُ

إذا أنتَ لم تُقْصرْ عن الجهل والخنا ... أصبتَ حليما أو أصابكَ جاهلُ[٢٤]

ومن المعاني الإسلامية الجديدة التي دبَّج فيها شعره الإيمان بالمعاد والحشر والتذكير بالأجل للتخفيف من أعباء الحياة وكاهل العوَز والكفاف وتكاليف الشيخوخة والهرم، وحسبك بالأمم الغابرة والأقوام السالفة دليلا ومعتبرا، فكلٌّ يموت طال المقام به أم قصُر!، ومن طال مكثه برى الزمان جسده وأبلى المشيب حيويته ونشاطه، وصار يدبُّ دبيبا، وهو كلٌّ على مولاهُ لا يرجى خيره ولا يخشى خطره ولا يستساغُ حُلوهُ ولا مُرُّه! ثم يُسلمهُ الى المنون أجلهُ ولو بعد حين!! في إشارة الى قوله تعالى (ومن نعمره ننكسه في الخلق) [٢٥] وقوله (وكلٌّ أتوه داخرين)، يقول[٢٦]:

وإنْ يُدركْكَ موتٌ أو مشيبٌ ... فقبلكَ ماتَ أقوامٌ وشابوا

تلبَّثنا وفرطنا رجالا ... دُعوا وإذا الأنامُ دُعوا أجابوا

ويصنفُ ديوانهُ الى أربعة أصناف، هي:

- المطولات، وهي التي تجاوز عدد أبياتها خمسين بيتا، وعددها ثلاث قصائد من أصل تسع وأربعين قصيدة (بضمنها المقطوعات والخواطر)، أي بنسبة ٦% من مجموع الديوان، وينحصر عدد أبياتها بين (٥٢- ٧٥) بيتا، وبمعدل (٥٤) بيتا.
- القصائد المتوسطة، وهي التي يتراوح عدد أبياتها بين (٢٢- ٤٣) وعددها إحدى عشرة قصيدة، أي بنسبة ٢٢% وبمعدل ٧٢,٢٩ بيتا.
- القصائد القصيرة، وهي التي يتراوح عدد أبياتها بين (١٠-١٦)، وعددها ثمان قصائد، أي بنسبة ١٦% وبمعدل ١٣. ٢٥ بيتا.

- المقطوعات، وهي التي يتراوح عدد أبياتها بين (٢- ٩)، وعددها تسع عشرة مقطوعة، أي بنسبة ٣٨% وبمعدل ٤.٦٣ بيتا.
- الخواطر، وهي التي تتكون من بيت واحد، وعددها ثمان خواطر، أي بنسبة ١٦%.

فإذا أضفنا الخواطرَ الى المقطوعات بلغ عددها سبع وعشرين مقطوعة، أي بنسبة ٥٥% من قصائد الديوان، أي ما يربو على النصف بقليل، ولعلَّ هذا يفسر لنا موقف الأصمعي من كعب بن زهير إذ لم يعده من الفحول في تصنيفه للشعراء في كتابه (فحولة الشعراء).

وإذن وبحسب التصنيف أعلاه نسجل ملاحظتين اثنتين:

- قلة شعره قياسا بما حظي به من شهرة ومكانة بين الفحول عظيمتين.
- كثرة المقطوعات في شعره.

ولعلَّ هذا يشي بأمور ثلاثة هي:

- إنَّ كعبا أحجم أو كادَ عن الشعر بعد إسلامه، واقتصر على ومضات تجول في خاطره بين الحين والحين فيلفظها دررا منظومة، وربما يكون ذلك انعكاسا لأثر الإسلام في شخصيته وطباعه، وتفرغه لدينه وتعلقه بالقرآن الكريم وانشغاله بحفظه وتلاوته وتعلم أحكامه وعلومه، لذا خفف من قول الشعر واكتفى بمقطوعات يسيرة استلهم معانيها من مبادئ الدين الجديد وقيمه وتعاليمه.
- لقد بلغ الشاعر مبلغا من العناية والتهذيب لشعره ما جعله يسقط كثيرا من شعره ويستغني عنه لركة أو عدم إحكام يظنها فيه، لينتقي منه ما يشبه المختارات الشعرية وفقا لمعايير الجزالة والمتانة والجودة.
- ربما تكون هذه المقطوعات أجزاءً من قصائدَ متوسطةٍ أو مطولة تعرضت للضياع شأنها شأن كثير من الشعر الجاهلي والإسلامي الذي أتت عليه عوادي الزمان فذوى في مقابر النسيان. نعم لقد ضاع من الشعر أكثره لعزوف الرواة في الإسلام عن الشعر وروايته حينا من الزمان، وقد أشار الى هذا العلماء فقال أبو عمرو بن العلاء ((ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلُّهُ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير))، وأرجع محمد بن سلام الجمحي ذلك الى انشغال العرب بالغزو والجهاد، وكان الشعر في الأغلب يروى

شفاها ويحفظ في الصدور، ولم يكن مدونا في كتاب أو صحيفة فلما راجعوا روايته كان من الرواة والعلماء من مات أو قتل فحفظوا من الشعر أقلَّهُ وضاع منهم شعر كثير، يقول ((فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعو رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير... ومما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه، قلة ما بقي منه بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد، اللذين صح لهما قصائد بقدر عشر، وإن لم يكن لهما غيرهُنَّ، فليس موضعُهما حيثُ وضعا من الشهرة والتقدمة)).

أولا: شعر الوصف:

الوصفُ هو الموضوع الأبرز الذي يحتلُّ مساحة واسعة من الديوان، والذي يستهوي القارئ ويجره الى منطقة الفضول لمتابعة الأحداث والتفاصيل والتأثر بها، أعني وصف الظعن والناقة والبعير والفرس والنعام والظليم وحمار الوحش والطرد وسرد التفاصيل والجزئيات من رحلة الظعن وحله وترحاله والهوادج وحركتها ووشيها وزخرفها والمواضع التي يمرُّ بها والأماكن التي يقيم فيها وما يصادفه في سيره من مواقف وأحداث، وكذلك الناقة أو البعير وصفاتها ومعاناتها وشكواها وأحاسيسها وما يعترضها من المشاق والمكابدات في أثناء رحلتها، وأتن الوحش وصدورها وورودها ومنابع المياه ووعوثة الطرق ومسالكها وقصة الصياد بأجوائها المثيرة وأحداثها الدراماتيكية وجزئياتها الدقيقة وتداعياتها النفسية وكل ما يتصل بها من مواقف حياتية ومشاعر وجدانية، ويخيَّلُ إليَّ أن الشاعر قد لامس هذه الجزئيات عن كثب وعاش صراعاتها النفسية ومكنوناتها الداخلية وتأثر بها أشد التأثير، وهنا يكمنُ سرُّ عنايته بسرد تفاصيل المشهد وفسح المجال لمخيلته وأحاسيسه وانطباعاته للتدخل ليس فقط في تحديد الإطار الخارجي للمشهد بل في توزيع مساحاته وملء فراغاته وتنسيق ألوانه ورسم خطوطه وزواياه وانعكاساته وتدرُّج ظلاله والغوص وبعمق في بواطنه واقتناص لا مرئياته أو ما يسمى بـ ،،ملامسة أسراره وخفاياه،،.

وأما الناقةُ فالحديثُ عنها طويلٌ ومتشعبٌ، وأبرز ما يشدُّكَ إليه ويستدعي انتباهك وإصغاءك ثلاثُ سماتٍ أو مؤهلاتٍ ما فتأتْ تتسمُ بها رفيقة سفره، تمكنها من قطع الفيافي ومكابدة الأهوال لتحقيق الغاية وبلوغ الهدف، وهذه السمات هي (القوة والسرعة والضمور)، ولعلها أيقوناتٌ يرمزُ بها الى سمات ثلاث أخرى هي (النشاط والصبر والتحدي) لا بد من توفرها فيه لتحقيق ما يبتغيه ويصبو إليه، وهي سمات عامة لا تقترن بشخص أو زمان أو مكان، بل تعد أهمَّ أدوات الإنسان في صراعه مع الحياة.

ويذهب في وصفه بعيدا حتى يختلج أغوار النفس وخفايا الوجدان، وهو يجيد التعامل مع أدق الحالات النفسية وأعمق المشاعر الوجدانية، فاستمع إليه وهو يصف ناقته الضخمة القوية وقد برى السفرُ جسمها ورمى فؤادها بالجنون، وهي إذ تبثُّ شكواها إليه تصكُّ أسنانها تارة وتصرخ بصوت عال تارة أخرى من شدة الإعياء والتململ، يقول[٢٧]:

حرفٍ توارثها السِّفارُ فجسمُها عارٍ تساوكُ والفؤادُ خطيفُ

وتكونُ شكواها إذا هي أنجدتْ بعد الكلالِ تملُّكٌ وصريفُ

ولعلَّ أروعَ ما وصف به الناقة قولُه[٢٨]:

وتديرُ للخرق البعيد نياطُه بعدَ الكلال وبعدَ نوم الساري

عينا كمرآة الصناع تديرُها بأناملِ الكفين كلَّ مدار

تنجو بها عُنْقٌ كنازٌ لحمُها خفرتْ فقارا لاحقا بفقار

إنَّ هذه السرعة الفائقة المتخيلة التي تتخطى مديات الزمن وتفوق حدود التصور، وكأنها طائر أسطوري تشتدُّ سرعته كلما تقدم في السير، وكأنَّ مؤخرة جسمه تطارد مقدمته.

صورةٌ إيحائيةٌ فلسفيةٌ متخيلةٌ نادرةٌ فيها من الغرابة والعمق بقدر ما فيها من المهارة والحذق، ولعلها تشبه الانطلاقة الجديدة لكعب، تلك التي غيَّرت مسار حياته بعد أن طوى مرحلة الشك والغفلة، فإذا كان الكلال ونوم الساري يرمزان الى مرحلة الشك والغفلة كانت (خفرتْ فقارا لاحقا بفقار) ترمز الى أن الشاعر يتطلعُ أو تتوقُ نفسه الى تلك الحياة الأبدية في حضرة الملكوت الإلهي بعدما تشرَّبَ من معاني الزهد وقيمه

السامية. وإذا ذهبنا أبعد من هذا أمكننا أن نقول: إنَّ الخلافة سلسلةٌ يتصل آخرها بأولها، وهي باقيةٌ في أهل البيت ما بقيت الحياة، في إشارة الى دولة الإمام المهدي (ع)، فهو قد يكون أثبت أحقية الخلافة لعلي (ع) في رائيته المضمومة ثم أردفها برائية مكسورة للإعلان عن دولة الحق والتبشير بها وتأكيدها!.

وأيُّ وصفٍ دقيق وبديع هذا الذي ينساب انسيابا بواقعية وحرفية عالية ليتتبع كل ما جال فيه النظرُ من حركة أو سكون أو انفعال أو شعور، ويلحظُ كل ما خفي على غيره من دقائق الأشياء وخفايا الأمور وأسرارها، وإذن فاسمع قوله في صفة النعام، ولعلهُ أروعُ ما قيل فيه، وهو يسير سيرا حثيثا مسرعا بلا انعطاف ولا انحراف مثل عبدين هربا من سيدهما بعد الأغلال، وقد شمَّرت بهمة عالية وبمشقة وتكلف، وبساقين كغصنين من البان يابسينِ وجناحين كأنهما متصلان من شدة التقارب حتى تبلغ غايتها ومقصدها:

راحا يطيرانِ مُعوجَّينِ في سرعٍ ولا يريعانِ حتى يهبطا أُنُفا

كالحبشيينِ خافا من مليكِهما بعض العذاب فجالا بعد ما كُتفا

فشمَّرتْ عن عمودَيْ بانةٍ ذبلا كأنَّ ضاحيَ قشرٍ عنهما انقرفا[٢٩]

وليس من شك في أن هذا الاستقصاء والتدقيق في الوصف هو أثر من آثار شعر زهير على شخصيته وفنِّه الذي طبع بطابعه حتى صار كأنه عضوٌ من أعضاء جسده لا يكاد ينفكُّ عنه.

ثانيا: شعر الغزل:

يبدو كعبٌ قصير النفس في غزله ولم يكُ ذاك سرا ليخفى، فالرجل لم يكن يعرف الحب ولا أحسَّ بإحساسه ولا اكتوى بناره، فلم ينشغل بذكرى كاذبة، ولا أحاديث واهية خاوية، وما كان ليسترخص الدموع على علاقة عابرة أو ديار غابرة، وقد يصرح بهذا غير آبه ولا مستعظم:

فلما رأيتُ بأنَّ البكاءَ سفاهٌ لدى دمنٍ قد بُلينا

زجرتُ على ما لدي القلو صَ من حُزنٍ وعصيتُ الشؤونا[٣٠]

نعم لقد كان قصير النفس ضيق المشاعر لجوجا في الصبر والتجلد مولعا بالعزوف والنسيان لا يعرف شيئا عن التوادد أو التهالك أو التصابي، وهو مقتصدٌ جدا في التشبيب والتلطف والملاينة والمسايرة وغيرِ ذلك

مما ينبغي أن يُبذلَ ويُرخَّصَ دون الحبيبة والغُنمِ بمودتها ووصالها، والصبرِ على ما تبديه المرأةُ من دَلٍّ وتمنُّعٍ ومجافاة، والعطفِ على تصوير جسدها وإبراز مفاتنها، وغزله وإن كان مؤدبا ليس فيه فحشٌ ولا تهتكٌ ولا ما يخدشُ الحياء لكنه كان مشحونا بالأنفة والكبرياء والتعالي. لقد جرد غزله مما ينبغي أن يكون في الغزل من إحساس مرهف وعاطفة جياشة ومشاعر صادقة وعذوبة في الكلام، وضمنه ما لا ينبغي أن يكون فيه من النفور والمماحكة والعتاب واللوم، يقول الدكتور فؤاد قُميحة ((حتى في شعره الغزلي الذي يستوجب رقة في العواطف ولينا في الطباع وعذوبة في الكلمات فإنه لن تجد فيه إلا حديثا عن المشاكسة والنفور وحديثا عن الوعود التي لا تصدق والأماني التي لا تتحقق وعتابا يتجاوز اللوم الى حد القطيعة والهجران)).

ومثل هذا كثيرٌ في غزله، على شاكلة قوله[٣١]:

أرى أمَّ شدادٍ بها شبهَ ظبية تُطيفُ بمكحول المدامع خاذلِ
وتفترُ عن غُرِّ الثنايا كأنها أقاحٍ تَروّى من عروق غلاغلِ
لياليَ نحتلُّ المِراضَ وعيشُنا غريرٌ ولا نُرعى الى عذل عاذلِ
فأصبحتُ قد أنكرتُ منها شمائلا فما شئتَ من بخلٍ ومن منع نائلِ
إذا ما خليلٌ لم يصلكَ فلا تُقِمْ بتلعته واعمدْ لآخرَ واصلِ

وقوله[٣٢]:

صفراء آنسة الحديث بمثلها يشفي غليلَ فؤاده الملهوفُ
دعها وسلِّ طلابها بجُلالة إذ حان منك ترحُّلٌ وخُفوفُ

وكذلك قوله[٣٣]:

ألا أسماءُ صرَّمْتِ الحبالا فأصبح غاديا عزم ارتحالا
تعاورها الوشاةُ فغيَّروها عن الحال التي في الدهر حالا
فسلِّ طلابها وتعزَّ عنها بناجية كأنَّ بها خيالا

فما أن قطعتْ أسماءُ مودتَها حتى عزم على الرحيل، وتصبَّر عنها بناجية، أي ناقةٌ سريعةٌ، تتبختَرُ من خيلاءَ ومرحٍ. وكثيرٌ من هذا أنت لاقيه متى ما تصفحتَ ديوانه وتأملتَ شعره ونظرتَ فيه.

وإذن لم يكن كعب مُحبا ولا شغوفا بالحب واستمالة النساء، وليس يصبرُ على ما يلاقيه العاشقُ من الصرم والقطيعة والصد والإخلاف بل يقابلُ الصد بالصد والنقض بالعزوف والهجْرَ بالهِجران...

ألم تعلمي أني إذا وصلُ خُلَّةٍ كذاكِ تولى كنتُ بالصبر أجدرا[٣٤]

وقد تكون له مغامرةٌ أو مغامرتانِ يعارضُ فيهما النساء في الهوادج ويركبُ مراكبَهُنَّ، دعاهُ الى ذلك شبابٌ جامحٌ وهزةُ أظعانٍ ذوات أريحية ونشاط موصوفات بالحسن والجمال والمرح، على شاكلة قوله[٣٥]:

وهزَّةِ أظعانٍ عليهنَّ بهجةٌ طلبتُ وريعانُ الصبا بيَ جامحُ

وقد يطلبه الزوج او بعض أقاربه وهم له كاشحون، قد حدُّوا الشفار للإيقاع به وقتله لو كانوا يجرؤون على ذلك، من مثل قوله[٣٦]:

وقالت تعلَّمْ أنَّ بعض حُموَّتي وبعلي غضابٌ كلُّهمْ لك كاشحُ

يحدُّونَ بالأيدي الشفارَ وكلُّهم لحلقكَ لو يسطيعُ حلقَكَ ذابحُ

وقد يبدو وكأنه لا يتحرجُ من مجون ولا سفه، وهو يركب جهله ويباشر لهوه مع ثلاث أو أربعٍ فاتناتٍ نواشز يوافقن هجان الإبل، أي كرائمها، في البياض وسعة الأعين، إذن فاسمعه وهو يقول مغترا مفاخرا:

وقد ينبري ليَ الجهلُ يوما وأنبري لسربٍ كحُرات الهجان توافقُه

ثلاثٌ غريراتُ الكلام وناشصٌ على البعل لا يخلو ولا هي عاشقه[٣٧]

وقد يرقُّ أحيانا أيَّما رقةٍ إذا ما ملك إحساسا صادقا وتمكن منه الوجد فأرهف حسَّه وخفف من جفاء طبعه وغلظته، فصفا مزاجه ورقَّ لفظه ولطف ذوقه، على شاكلة قوله[٣٨]:

أخو الجمر هاجتْ شوقهُ فتذكرا

وقوله:

أبتْ ذِكرةٌ من حُبِّ ليلى تعودني عيادَ أخي الحمى إذا قلتُ أقصرا[٣٩]

إذ تراجعه وتعاوده ذكرى ليلى كما تعاود ذا الحمى سخونته من حين الى حين من بعد انقطاع وأمل في الشفاء، وفي حال يظنُّ فيها أنها مفارقةٌ له فراق حائن أو كاشح، فيذوي لها الجسد وتفتر عظامه، وكأنه عودُ البانِ عصفت به رياحُ الهَيفِ العاتية، فذوى كالشَّنان... ومثل هذا قليلُ بل نادرٌ في شعره...

وقد يبدو أحيانا كأنه عاشقٌ متيمٌ ولكنني لا أراه عاشقا ولا متيما، وقد يبدو كأننا نتعاطفُ معه كعاشق أضرَّ به المطلُ والبعدُ والتسويفُ، كقوله[٤٠]:

وما زلتَ ترجو نفع سُعدى وودَّها وتبعدُ حتى ابيضَّ منك المسائحُ

ولكن سرعان ما تختفي آثار ذلك العشق المزيف أو المتقمص ويعود الى طبعه القديم فيجفو ويتصبَّر وينافح...

ثالثا: شعر الخمر:

ولا ريب خرج كعب بعض الشيء عن تقاليد المدرسة الأوسية التي لا تجاهرُ بالفحش ولا تسُفُّ ولا تعاقر، يمنعانها من ذلك ذوقٌ ملتزمٌ وشيءٌ من روية وتعقُّل، مغايران لذوق الجاهلية وسفه أحلامهم، كان ذلك في خمرياته، أعني وصفه للخمر والتبجح بمعاقرتها، مع جريان المشيب في رأسه مجرى السيل في الصرماء، ينهلُ تارة ويُعلُّ أخرى في معية ندمان يتجاذبهم السكر والملذات قد اعتادوا الشراب وحذقوا آدابه وقواعده، وهو يعمد الى لحن غريب أو مفارقة عجيبة بجعله الكرم وحسن الخلق معقودين بزمام الخمرة، وما معاقرتها إلا حثٌّ وتحريضٌ على هاتين الخصلتين، إذن فاسمع قوله[٤١]:

كلانا علتهُ كبرةٌ فكأنما رمتهُ سهامٌ في المفارق نُصَّلُ

وقد أشهدُ الكأس الرويَّة لاهيا أُعلُّ قبيل الصبح منها وأنهلُ

يُنازعنيها ليِّنٌ غيرُ فاحش مبادرُ غايات التجار مُعذَّلُ

إذا غلبتهُ الكأسُ لا مُتعبِّسٌ حَصورٌ ولا من دونها يتبسَّلُ

وغاياتُ التجار يريد رايات تجار الخمور، قال الأصمعي: كان أصحاب الخمر إذا نزلوا ضربوا راية ليعرفوا بها، والمعذل الملوم والحصور البخيل والمتبسل الكريه المنظر، والمعنى أن نديمه ليس ممن يعبِّسُ أو يبخل أو يعربد، بل هو ليِّنٌ سخيٌّ مبادرٌ الى اللذة والشراب.

ويصرِّحُ غيرَ مرة بتعاطيه الخمر ومراودته للشراب مع ندمان إذا ما عاقروا الخمرة سما فيهم نارها ودبيبها وكأنها مجاجاتُ الأفاعي، وهو قوله[٤٢]:

تَساقَوا بماءٍ من بلاد كأنهُ دماءُ الأفاعي لا يُبلُّ سليمُها

مُجاجاتِ حياتٍ إذا شربوا بها سما فيهمُ سُوّارها وهميمُها

رابعا: شعر الفخر:

وفي الفخر لا يحيدُ كعب عن المعاني التي يفخر بها الشاعر الجاهلي المستمدة من الصفات والقيم الأصيلة المتجذرة في نفس الإنسان العربي، وأبرز معاني الفخر الجاهلي في شعره هي:

- الشجاعة
- الزعامة
- الكرم
- الحسب الكريم
- الفضائل والقيم الأصيلة
- الابتعاد عن الفحش والرذيلة.

لقد عاش كعب ما عاش يلهج بقومه ويفخر بمآثرهم ومفاخرهم، فهم موسومون بالشجاعة والكرم ولهم شرف ثابت في الآباء والأجداد، أليس يقول[٤٣]:

فنحنُ بنو الأشياخِ قد تعلمونه نُذبّبُ عن أحسابنا ونُدافعُ

ونحبُسُ بالثغر المخوف محلُّهُ ليُكشفَ كربٌ أو ليُطعم جائعُ

ومن مآثره في الحرب أنه من ذوي المشاهد التي لا تنكر، وقد اعتنق خصمه، أي أسَره في موقعة مشهودة، كما أنه يقارع الأبطال في الميدان ولا يفتدي بهم غيرهم، وهو قوله[٤٤]:

وعن اعتناقي ثابتا في مشهدٍ مُتنافسٍ فيه الشجاعةُ للفتى

ما إنْ وجدتُ له فداءً غيرهُ وكذلك كان فداؤُهمْ فيما مضى

ومما يحقُّ له أن يفخر به حميَّته ونخوته وإغاثته للمستصرخ وقد غصَّ بريقه من الخوف وأحاط به الشرُّ من كل جانب، وهو قوله[٤٥]:

ومُرهَقٍ قد دعاني فاستجبتُ له أجزتُ غصَّتهُ من بعد ما شرِقا

وشجاعته وبأسُ قومه كانا قد أغرياه بالشدة والعداوة والانتقام، فلا مناص يشددُ على عدوه ويصعد ويهزأُ به ويسخر منه سخرية لاذعة، وقد خبره ليس أهلا للوعيد، وما وعيدُه سوى حشرجة أو ظاهرة صوتية ليس وراءها مصاولة ولا انقضاض، هذا الذي عناه بقوله[٤٦]:

أمُودٍ خلْفُكمْ هرما ولما تذوقوا من عداوتنا وبالا

ولمّا تفعلوا إلا وعيدا كفى بوعيدِكُمْ لهمُ قتالا

وعيدٌ تُخدجُ الأرحام منه وينقلُ من أماكنها الجبالا

خفيفُ الغيث تُعجبُ من رآه مَخِيلتهُ ولم تقطرْ بَلالا

والكرمُ سمةٌ أصيلةٌ متجذرةٌ من سمات شخصيته، ورثها عن عشيرته وقومه، هو عاش وترعرع بل ويموت أيضا على الإيثار والكرم والذكر الجميل، ولا يحيد عن ذلك ما جدَّ الجديدان، أليس يقول[٤٧]:

فتىً لم يدعْ رشدا ولم يأتِ منكرا ولم يدرِ من فضل السماحة ما البخلُ

إذا كان نجلُ الفحل بين نجيبة وبين هِجان مُنجبٍ كرُم النجلُ

ومثلُ ذلك قوله[٤٨]:

ونارٍ قُبيلَ الصبحِ بادرتُ قدحها حيا النارِ قد أوقدتُها لمُسافرِ

وكلُّ من يعذله ويلحاهُ على إسرافه في الكرم فهو جاهل ضيِّق الفكر طائش اللسان، يقول[٤٩]:

بكرتْ عليَّ بسَحرة تلحاني وكفى بها جهلا وطيشَ لسانِ

وفخره الإسلامي لا شك مغايرٌ عن فخر الجاهلية ونزقها وبغيها وعتوها، فقد اصطبغت معانيه بروح الإسلام وقيمه النبيلة ومبادئه الحقة وتوشحت بالواقعية والاعتدال، يقول الدكتور شوقي ضيف ((ونراه دائما في شعره الجاهلي مفاخرا متوعدا مهددا حتى إذا أسلم أخذت نفسه تصفو وأخذ يستشعر معاني الإسلام الروحية وما دعا إليه من الخلق الفاضل، ولعل في ذلك ما يدل دلالة واضحة على تأثير الإسلام في نفسه وفي شعه)).

وأولُ ما يلقانا من تلك المعاني الجديدة الفخر بالإيمان والتقوى، والوفاء بما عاهدوا عليه الرسول (ص)، والتوكل على الله سبحانه، والذود عن دينهم والإخلاص له، وإثبات حسن السيرة والسلوك، والعزة والمنعة وكثرة العدد والسلاح في رحاب الإسلام، ومشايعة الظفر وتحقيق الانتصارات، فضلا عن القيم الأصيلة المعتادة، كالشجاعة والإقدام والاستبسال في الوغى وقوة الإرادة وصلابة الهمم وغيرها، خذ قوله مثلا[٥٠]:

صبَحناهمْ بألفٍ من سُليمٍ وألفٍ من بني عثمانَ وافِ

حدوا أكتافهم ضربا وطعنا ورميا بالمُريَّشة اللِّطافِ

وأعطينا رسول الله منا مواثيقا على حسن التصافي

فجُزنا بطن مكة وامتنعنا بتقوى الله والبيض الخفافِ

ورُحنا غانمين بما أردنا وراحوا نادمين على الخلافِ

خامسا: شعر الحكمة:

لقد عرف عن كعب أنه يجيد توظيف المثل والحكمة في شعره، ولعلَّ هذا يشي بأمرين:

- تجاربُه الكثيرةُ في الحياة مكَّنته أن يختطَّ لنفسه خطا يظهر فيه بمظهر العارف الخبير والحكيم المجرب، كما مكَّنته أن يصوغها شعرا ويسوقها دليلا ومعتبرا على رجاحة عقله وتمرسه بأفانين الحياة ومواقفها وأحداثها.

- تأثرُه الكبيرُ بأصول مدرسة أوس الشعرية وسَننها بوصفها مدرسة فنية تعليمية تحوكُ الشعر وتوجههُ وجهةً تربويةً أخلاقيةً من خلال استخلاص التجارب والعبر من الحياة وتوظيفها في إدارة المواقف واتخاذ

القرارات بحنكة ودراية ورويَّة سعيا لبناء الشخصية السوية وصقلها وتوجيهها نحو الخير والصلاح على الصعيدين الفردي والاجتماعي.

- وجاء توظيف المثل في قوله: (وأقربْ بأحلام النساء من الردى) أخذه من قولهم في المثل "لبُّ المرأة الى حُمْق" أي عقول النساء تصير الى فساد، يضرب عُذْراً للمرأة عند الغيرة، ومما قالت العرب في أمثالها: (إياك ومشورة النساء فإن رأيهن إلى الإفن وعزمهن إلى الوهن).

- ومن معانيه الحكمية أو مواقفه الفلسفية أن الحياة فانيةٌ والموت كأسٌ دائرةٌ على الجميع، وحسبنا بمن مضى من أسلافنا واعظا، ولسوف نغيبُ بعدما شهدنا غيابهم وسيشهدُ غيرُنا غيابنا، يقول[٥١]:

وإنَّ سبيلنا لسبيلُ قومٍ شهدنا الأمرَ بعدهمُ وغابوا

- والدهرُ لا يفتأُ يطلبك، وقد يأتيك من حيث احتسبتَ أو لم تحتسب، وكثيرا ما يأتيك الشر من حيث تجهله، وكم أمرٍ رجوتَ به خيرا غدا عليك شرا، ولعلَّ حاطبَ الأعواد يغفو فتنهشهُ السباعُ...

طافَ الرماةُ بصيدٍ راعهمْ فإذا بعضُ الرماة بنبل الصيد مقتولُ[٥٢]

- وإذا قصدك سهمُ المصيبة فلا تنفعُ معه تمائمُ النعم، أي أن المصائب الشديدة تُنسي الإنسانَ كلَّ عيش رغيد، يقول[٥٣]:

كأنَّ امرأ لم يلقَ عيشا بنعمةٍ إذا نزلتْ بالمرء قاصمةُ الظهرِ

وقد قيل في ذلك:

إذا أقبلت المصائبُ أدبرت النعم

وهذا أبو الحسن النقيب يقول: غرضُ النوائب منْ أُعيرَ كمالا[٥٤]

- وإن وجود الأمل في حياة الإنسان أمر ممدوح وحالة صحية تدفع الى العمل وتعزز الطاقة الإيجابية لديه، ولكن بالحد الطبيعي ومن دون إفراط أو تفريط، وبعكسه يتحول الى حالة مرضية وأمر مذموم ومورد من موارد الهلاك، لذا يعجب من غفلة الإنسان وقدره مخبوء له ويحذره من طول الأمل الذي يلفه بحبله الممدود حتى يجره الى حتفه[٥٥]:

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني سعيُ الفتى وهْوَ مخبوءٌ له القدرُ
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثرُ

وقد قيل في ذلك:

(الآمال مصائد الرجال) و(مطية الأمل لجامها الهلاك)، وجاء في لباب الآداب لأسامة بن منقذ: قال سقراط: طول الأمل ينسي الأجل واتباع الهوى يصد عن التقوى[٥٦].

- وفكرة الانتباه بعد الغفلة أو الانطلاق بعد العثرة لم تزل تدورُ في فكره ومخيلته فينطقُ بها لسانه بعد أن يكسوها كعادته حُلَّةً بهيةً من درر نسجه المنيعة ومن أفانينَ تصاويره البديعة، يقول[٥٧]:

ومريضةٍ مرضَ النعاس ذعرتُها بادرتُ علَّةَ نومها بغرارِ

- وكثيرا ما يشكو من الشيب وذهاب الشباب، وكأنه يضمنُ شكواه رسالةً مفادها أنه يتطلع الى عالم آخرَ لا يُشبه هذا العالم وحياة جديدة سرمدية يحظى فيها بالنعيم الدائم والعيش الرغيد، وبقدر ما هو متذمر من الكبر وآلام الحياة التي ملؤها الضعف والهم والحسرة فهو متطلعٌ الى تلك الحياة الأبدية الهانئة التي ملؤها النشاط والرضا والسعادة، وهو يشكو الدهر كما شكا زهيرٌ قبله ويدرك منه ما أدرك والده، فالجسدُ لا محالة يفنى والذي يخلِّد امرأً كلامُه ونواطقُه[٥٨]:

وأفنى شبابي صبحُ يوم وليلةٌ وما الدهرُ إلا مُسيهُ ومشارقُه
وأدركتُ ما قد قال قبلي لدهره زهيرٌ وإنْ يهلكْ تخلَّد نواطقُه

ولا شك أن هذا الأسلوب الحكمي الذي يتسم بالعقلانية والهدوء والإقناع هو من إفاضات شعر أستاذه زهير عليه بعد أن سكنت نفسه وراضت بلجام هذا الدين الجديد وما أملته عليها تجارب السنين وتقادم الدهور.

نتائج البحث:

بعد قراءة فاحصة متأملة لشعر كعب بن زهير يظهر لنا ما يأتي:

١. كان كعب في غزله قصير النفس ضيق المشاعر لجوجا في الصبر والتجلد مولعا بالعزوف والنسيان لا يعرف شيئا عن التوادد أو التهالك أو التصابي، وهو مقتصدٌ جدا في التشبيب والتلطف والملاينة، والعطفِ

على تصوير جسد المرأة وإبراز مفاتنها، وغزله وإن كان مؤدبا ليس فيه فحشٌ ولا تهتكٌ ولا ما يخدشُ الحياء لكنه كان مشحونا بالأنفة والكبرياء والتعالي.

٢. خرج كعب في شعره الخمري عن تقاليد المدرسة الأوسية التي لا تجاهرُ بالفحش ولا تسُفُّ ولا تعاقر، يمنعانها من ذلك ذوقٌ ملتزمٌ وشيءٌ من روية وتعقُّل، مغايران لذوق الجاهلية وسفه أحلامهم.

٣. إن كعبا في فخره الجاهلي لم يكن ليحيد عن المعاني التي يفخر بها الشاعر الجاهلي المستمدة من الصفات والقيم الأصيلة المتجذرة في نفس الإنسان العربي، أما فخره الإسلامي فهو لا شك مغايرٌ عن فخر الجاهلية ونزقها وبغيها وعتوها، فقد اصطبغت معانيه بروح الإسلام وقيمه النبيلة ومبادئه الحقة وتوشحت بالواقعية والاعتدال.

٤. كان الوصف الموضوع الأبرز الذي يحتلُّ مساحة واسعة من الديوان، ويستهوي القارئ ويجره الى منطقة الفضول لمتابعة الأحداث والتفاصيل والتأثر بها، ويبدو لي أن الشاعر قد لامس كل تلك الجزئيات التي وصفها في شعره عن كثب وعاش صراعاتها النفسية ومكنوناتها الداخلية وتأثر بها أشد التأثير، وهنا يكمنُ سرُّ عنايته بسرد تفاصيل المشهد وفسح المجال لمخيلته وأحاسيسه وانطباعاته للتدخل ليس فقط في تحديد الإطار الخارجي للمشهد بل في توزيع مساحاته وملء فراغاته وتنسيق ألوانه ورسم خطوطه وزواياه وانعكاساته وتدرُّج ظلاله والغوص وبعمق في بواطنه واقتناص لامرئياته. وأما وصف الناقة فأبرز ما يشدُّكَ إليه ويستدعي انتباهك ثلاثُ سماتٍ ما فتأتْ تتسمُ بها رفيقة سفره، وهذه السمات هي (القوة والسرعة والضمور)، ولعلها أيقوناتٌ يرمزُ بها الى سمات ثلاث أخرى هي (النشاط والصبر والتحدي) لا بد من توفرها فيه لتحقيق ما يبتغيه ويصبو إليه، وهي سمات عامة لا تقترن بشخص أو زمان أو مكان، بل تعد أهمَّ أدوات الإنسان في صراعه مع الحياة.

٥. أجاد كعب توظيف المثل والحكمة في شعره، ويرجع ذلك الى تجاربه الكثيرة في الحياة التي مكَّنته أن يختطَّ لنفسه خطا يظهر فيه بمظهر العارف الخبير والحكيم المجرب، فضلا عن تأثره الكبير بأصول مدرسة أوس الشعرية وسَننها بوصفها مدرسة فنية تعليمية تحوكُ الشعر وتوجههُ وجهةً تربويةً أخلاقيةً من خلال

استخلاص التجارب والعبر من الحياة وتوظيفها في إدارة المواقف لبناء الشخصية السوية وتوجيهها نحو الخير والصلاح على الصعيدين الفردي والاجتماعي.

الهوامش:

١ ظ: طبقات فحول الشعراء: ٩٧/١

٢ ظ: الأغاني: ١٧٦/٣

٣ الشعر والشعراء: ٢١/١

٤ ظ: طبقات فحول الشعراء: ١٠٤/١

٥ ديوان كعب بن زهير: ١٠٦

٦ الشعر والشعراء: ٥/١

٧ البيان والتبيين: ١١٧/١

٨ ظ: العمدة: ٤٠/١.

٩ طبقات فحول الشعراء: ٦٤/١

١٠ الشعر والشعراء: ٣٥/١

١١ ديوان كعب بن زهير: ١٣٧

١٢ نفسه: ١٥٤-١٥٥

١٣ نفسه: ١٤٤-١٤٥

١٤ نفسه: ١١٩-١٢٠

١٥ نفسه: ٨٦

١٦ نفسه: ٤٤-٤٥

١٧ نفسه: ٨٥

١٨ نفسه: ٨٤

١٩ نفسه: ١٠٣

٢٠ نفسه: ١٠٤

٢١ العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف:٨٧.

٢٢ المحاسن والمساوئ، ابراهيم البيهقي:٩٧، أعيان الشيعة، الأمين:٢١١/١٣.

٢٣ ديوان كعب بن زهير: ١٢٢

٢٤ نفسه: ١٣٤

٢٥ سورة يس /٦٨

٢٦ ديوان كعب بن زهير: ٤٩

٢٧ نفسه: ٩٥

٢٨ نفسه: ٦٢

٢٩ نفسه: ٩٢

٣٠ نفسه: ١٥٠

٣١ نفسه: ١٢٦

٣٢ نفسه: ٩٤-٩٥

٣٣ نفسه: ١٣٠-١٣١

٣٤ نفسه: ٦٣

٣٥ نفسه: ٥٢

٣٦ نفسه: ٥٢

٣٧ نفسه: ١٠٢

٣٨ نفسه: ٦٣

٣٩ نفسه: ٦٣

٤٠ نفسه: ٥١

٤١ نفسه: ١١٧

٤٢ نفسه: ١٤٩

٤٣ نفسه: ٨٥

٤٤ نفسه: ٤١

٤٥ نفسه: ١٠٨

٤٦ نفسه: ١٣٢

٤٧ نفسه: ١٣٣

٤٨ نفسه: ٧٥

٤٩ نفسه: ١٥٧

٥٠ نفسه: ٩٨-٩٩

٥١ نفسه: ٤٩

٥٢ نفسه: ١٣٤

٥٣ نفسه: ٧٧

٥٤ يتيمة الدهر:١/٤١٥

٥٥ ديوان كعب بن زهير: ٧٧

٥٦ لباب الآداب:١/ ١١٩

٥٧ ديوان كعب بن زهير: ٦١

٥٨ نفسه: ١٠٠